

Al-Zaytouna Centre
for Studies & Consultations



مركز الزيتونة
للدراسات والاستشارات

Conference on
**The Islamists of the Arab World
& the Palestinian Issue**
in Light of the Arab Uprisings

مؤتمر
**الإسلاميون في العالم العربي
والقضية الفلسطينية**
في ضوء التغيرات والثورات العربية

ورقة عمل
**الإسلاميون في العالم العربي
وثقافة المقاومة**

د. أسامة الأشقر



Crowne Plaza - Beirut - Lebanon
28-29 November 2012

فندق كراون بلازا - بيروت - لبنان
28-29 تشرين الثاني / نوفمبر 2012

الإسلاميون في العالم العربي وثقافة المقاومة

د. أسامة جمعة الأشقر*

مدخل:

دراستنا هنا تتناول الجانب التنظيمي والمعرفي في إدراك الإسلاميين في العالم العربي لمفهوم المقاومة وإحساسهم بها وسلوكهم التطبيقي تجاهها، في مرحلة ما بعد الانتفاضات العربية. ونقصد بالإسلاميين هنا هي الأطر ذات المرجعية الإسلامية في رؤاها السياسية، سواء كانت ذات بناء تنظيمي أم لم تكن. وموضوع المقاومة هنا يختص بفلسطين المحتلة.

خلفيات التشكيل الثقافي للمقاومة:

الثقافة بطبيعتها مقاومة للجمود والتبعية ولديها قوة تحدُّ مرنة بالرمز والحيلة الإبداعية. وهي تتعلق بأبعاد ثلاثة: الإدراك والسلوك والحس؛ وبذلك هي تمثل المخزون الجمعي للمعارف، والمشاعر، والأفعال. وتشكّل الخلفيات الثقافية أساس الفعل المقاوم أو الرأي المقاوم، ولا ينفك أحدهما عن الآخر. والفكر الإسلامي كيان مقاوم طموح باحث عن الحرية والحضور، ينسجم بالأساس بسرعة مع الاتجاهات التغييرية المقاومة في السلم والحرب.

ثقافة المقاومة والانتفاضات العربية:

مصطلح الثورة تجاوز النخبة وأصبح له معنى ثقافي جماهيري، ينبع من رؤى الجيل الشاب فيما يراه عن نفسه وما يرتضيه لها. وأصبحت النخب في موقع الدفاع عن النفس والاستجابة لضغوط الجمهور وثقافته، ولم تعد النخب هي التي تنتج المصطلحات وتصبها على الناس. وهذا المتغير يحتاج إلى زمان ليس بالقليل ليتبلور ويصبح ثقافة عامة.

الإسلاميون وثقافة المقاومة:

تمتد المقاومة في الفكر الإسلامي في مساحة عريضة بين النص والعقل والسياف، تتفاعل مع بعضها بفعل الوقود الواقعي، وتنتج نحو التثوير والتغيير وإنكار الذات للوصول إلى حالة الانسجام الكامل مع عناصر التكوين الأولى في تلك المساحة.

* د. أسامة جمعة الأشقر: مدير مؤسسة فلسطين للثقافة.

والمقاومة قيمة أصيلة في ثقافة الإسلاميين وأدبياتهم التنظيرية، ويدخل مفهوم الثقافة كقيمة أصيلة وتمثّلات صارمة في أيديولوجيا الإسلاميين ومعتقداتهم الأصيلة، ولديها القدرة على الشحن الدائم، لتوفر النصوص والأمثلة الكثيرة على تطبيقاتها وتنظيراتها.

وتشكّلت الشخصية الإسلامية من مجموعة المعارف والموارد الفكرية القابلة للتعبئة ومجموعة الميول العاطفية للقيام بسلوك ما، وتنشأ من الخبرات المكتسبة ضمن منهج صارم بدءاً من الطفولة إلى مرحلة النضج، في ظلّ التجارب التي يخوضها الأفراد ضمن جماعتهم.

ثقافة المقاومة لدى الإسلاميين طريقة في التفكير والإحساس والسلوك، مصاغة ومحددة في البرامج والمادة النظرية والمرجعية للإسلاميين، تشكل بالنسبة لهم انتماءً فكرياً خالصاً لا يعاني من ثنائيات الروح والمادة.

ويمكن صياغة هذه النظرة كالتالي: ثقافة المقاومة قيمة إدراكية عليا تتخرط فيها الجماعة، تتحدد فيها هويتها وسلوكها ورأيها ضمن أبعاد معرفية وانفعالية ونزوعية، لها معايير تحدد قواعدها وأدوارها، ولها مواقف تحدد اتجاهاتها.

الإسلاميون والانتفاضات العربية:

كانت الثورات العربية فرصة للإسلاميين لينخرطوا فيما يمارسونه ولكن على نطاق أوسع يتجاوز أطهرم التنظيمية، وقد أثبتوا قدرتهم على الانسجام مع تطلعات الجماهير وحراكهم مما أوصلهم إلى السلطة في معظم بلدان الربيع العربي أو وصلوا إلى مراكز متقدمة في الخريطة السياسية.

هذا الانجاز جعل الإسلاميين ذوي رمزية على مستوى العالم من خلال نجاحهم في المشاركة بالحراك الشعبي وقيادته في بعض المراحل. أصبح الإسلاميون اليوم في عين الجميع؛ يراقبون ويرصدون وينقدون تجربتهم، لذلك باتت شعاراتهم ومضامين خطابهم تحت مجهر النقد لأول مرة بدون أن يكون المتدخل الوحيد هو السلطة المعادية.

ثقافة المقاومة وأفق الديمقراطية:

المقاومة هي واحدة من الآليات الحامية للديموقراطية، والتي يضطر الشعب إلى استخدامها عندما تثبت الوسائل الأخرى عدم فاعليتها، أكان ذلك في السياسة الداخلية أم الخارجية.

المقاومة ليست فقط آلية في ممارسة السياسة، بل هي أيضاً فعل أخلاقي يثبت الالتزام بواجب الدفاع، حتى الاستشهاد، عن حقّ الجماعة بالحياة والبقاء.

فعندما تتعرض الحقوق الأساسية المكفولة عالمياً كالحق بالحياة وبالحرية والكرامة، وعندما يسكت الديموقراطيون، أو يتجاهلون، أو عندما يشاركون، فإن هؤلاء الديموقراطيين يصبحون

منتحلي صفة، ويصبح على القوى المنظمة أن تحمي نفسها وتدافع عن حقوقها بما تمليه مبادئ الديمقراطية نفسها، أي حقّ الدفاع عن النفس، فتصبح المقاومة الإجراء الشرعي، وربما الوحيد، الذي يمكنه أن يستعيد للديموقراطية صدقيتها وأحقيتها.

على أن أهم التحديات التي تواجه الإسلاميين في العالم العربي للالتزام ثابت المقاومة:

1. **تنازع المبادئ:** حيث أن التزام المقاومة مكلف سياسياً واقتصادياً مما يجعلها عبئاً اقتصادياً واجتماعياً وأمنياً، ويسعى الحاكم دوماً إلى الاستقرار الاقتصادي والأمني والسياسي خوفاً من انفجار الوضع الداخلي أو تأزيمه.

وهذا التنازع بين المسؤوليات الشرعية يجعل أمر المقاومة أمراً ثانوياً إلا إن دفعت الحركة الإسلامية رؤيتها الاستراتيجية نحو تفكيك عوامل الضعف الاستراتيجي التي تأتي "إسرائيل" في رأس قائمتها.

2. **المنافسة السياسية:** توجد المنافسة بين التيارات السياسية في البلد الواحد حالات استقطاب حادة، قد تستخدم فيها المقاومة كواحدة من أدوات المعركة، بحجة أن دعم المقاومة أو الانخراط فيها هدر لإمكانات البلد وتدخل في قضايا داخلية لدول وجماعات أخرى.

3. **طول الفترة الانتقالية وضغط الواقع:** خرجت الدول العربية المتأثرة بموجات الانتفاضة العربية مرهقة ومستنزفة فوق مشكلاتها العويصة الأخرى المتراكمة، مما سيجعل فلسطين بعيدة عن الأولويات وقد تكون في ذيل الاهتمامات بسبب الظروف الموضوعية الواقعية، والحاجة إلى تمكين السلطة وتعزيز هيبتها وبسط خدماتها وحلّ مشكلاتها. حيث تنصدر في كلّ فُطر مشكلات تحقيق العدالة والإصلاح والتنمية الشاملة، ومواجهة الفساد، والقضاء على الفقر والبطالة والأمية... قائمة الأولويات الملحة.

4. **النظرة للجمهور:** ينظر الإسلاميون إلى الجمهور على أنهم محل الدعوة ومحل التغيير، فيبرمون معهم علاقة تفاعلية فكرية، وفي حال وصولهم للسلطة فإن هذه النظرة ستتحول إلى بناء علاقة تفاعلية أخرى، تعتمد أنهم الوسيلة للوصول إلى السلطة مجدداً وأنهم أصوات انتخابية، فيميلون إلى إقناعهم ببرامج خدمية خاضعة للنقد والمحاسبة، بعكس التلقين الديني الذي يتعامل معه الجمهور على أنه مسلمات، وفي هذه الحالة فإن تغيير مزاج الجمهور الانتخابي لأي سبب قد يؤدي إلى استتار شعارات المقاومة وأدبياتها في خطاب السلطة.

ضمان "ثابت" المقاومة لدى الإسلاميين:

الحركة الإسلامية غنية بتجاربها المتنوعة ولديها قدرة عالية على مزج الثقافات الصعبة والآراء المتناقضة في منظومة قواعد ناظمة للتفكير، وإنما يصيبها الضرر عندما تتدخل السلطة في الفعل الفكري لتحديد مسارات لها، فتسبب انحرافات تولد ردود أفعال غير متوازنة.

ويعتمد الإسلاميون على قاعدة خطاب عريضة، لديها قدرات تأثيرية عالية وأجوبة جاهزة نظراً لحالة السجال الفكري الدائمة التي لديهم مع نظرائهم ومن يناقضهم أو يخاصمهم، ويمكن تسمية الإسلاميين عموماً بالمتقنين التاريخيين الذين يستدعون التجارب المثالية لتطبيقها ومحاولة التماهي معها.

الوجود المادي للتحديات في الواقع يدفع الإسلاميين لمواجهة التحدي بتحدٍّ مقابل، ولدى الإسلاميين خبرة عالية في مواجهة التحديات مسبقاً، نظراً لولائهم الشديد لأفكارهم.

فلسطين كانت جزءاً مهماً وقوياً في خطاب الإسلاميين، والمقاومة الفلسطينية شديدة الحضور في أدبياتهم أيضاً، لذلك سيكون صعباً على أيّ قيادة إسلامية تجاوز هذا المستوى العالي من الخطاب الأول. ولكن إذا وصلوا إلى السلطة فإن حالة الوعي والوضوح الفكري تجاه المقاومة ستتأثر بالواقع المادي الصعب، وستجد تنظيرات تعتمد لغة مقبولة لدى عموم مدارس الإسلاميين، تدعو إلى تأجيل المعركة أو تحييدها لتمكين قيم أعلى. وهذا ما سيتسبب -إذا حدث- في حالة صدام عنيفة مع وعي الجماهير، وسيواجه الإسلاميون معركة داخلية سهلة الحسم في تقديري، إلا أنها قد تأخذ مدى لتتضح فيها رؤية هذا الحسم، وستتجاز الفكرة الإسلامية في عمومها إلى رحم الوعي وحاضنته الأولى، بالرغم من أن ثقافة المقاومة ستنزل درجة عما كانت عليه في مستويات خطابهم الأول، لأن مدرسة الإسلاميين ستبقى مشغولة بالدعوة ونشر المعرفة والفكرة بين الجماهير، وفي حال وصولهم إلى السلطة فلن يستطيعوا نسيان دورهم في تقديم قياداتهم نظراً لإيمانهم بقيمة الوفاء.

ولكي لا يخسر الإسلاميون في السلطة هذا الجمهور فإن بعض الظروف قد تدفع بهم نحو الصمت الإيجابي، الذي يجنبهم المواجهة غير المناسبة التوقيت ولا يشكك في توجهاتهم الجديدة أو يؤدي إلى الإيهام بحصول تغيير في أدبياتهم. وقد يرجح هذا التوجه أن جمهور الإسلاميين المحيط يمتاز بالولاء الشديد، وعفوية الإحساس، ومرونة الحركة، ولديه قابلية عالية للانخراط في الحالة المرادة، إذا صوّبت الموجّهات العامة أدواتها نحو أهداف ما.

وقد يضطر بعض الإسلاميين إلى الاحتجاج بالواقع الفلسطيني المنقسم لتبرير تراجع خطاب التأييد للمقاومة لديه، وقد يلجؤون إلى استخدام مصطلحات غامضة تداري رغبتهم في تأجيل المواجهة المحتومة.

ومن مجالات ضمان ثابت المقاومة هو حالة الاستدعاء التاريخية لأدوار الإسلاميين في دعم القضية الفلسطينية، والمشاركة في جهاد أهلها، والمشاركة في البناء التنظيمي لفصائلها العسكرية المسلحة، هذا الاستدعاء الذي كان له حضور لافت في تشكيل أدبيات الانتماء للحركة الإسلامية وتشكيل الهوية الإسلامية للجماعة الملتزمة.

الإسلاميون في مصر وتونس وثقافة المقاومة:

إنما جاء التركيز هنا بوصف هاتين الثورتين قد تمكنتا من إنجاز مشروع الإطاحة بالنظام، قضية فلسطين هي عنوان العبور للمكانة الإقليمية بالنسبة لمصر بوصفها قضية مصيرية وقضية أمن قومي، ومصر بالنسبة لأطراف الصراع في فلسطين هي بوابة الدخول إلى حلبة المواجهة أو السياسة. وقد أسهم النظام السابق في إضعاف دور مصر الإقليمي من خلال انحيازه للرؤية الأمريكية ودخوله طرفاً ضدّ الفلسطينيين من خلال حصار غزة ومحاربة المقاومة. وقد كانت جميع برامج القوى الانتخابية للرئاسة المصرية تتفق على اعتبار "إسرائيل" في محور الصراع، وتبتدئ التوصيفات باعتبارها "خصماً عنيداً" أو "عدواً استراتيجياً" أو "عدواً أول" يهدد الأمن القومي لمصر. ويتحدث الجميع عن ضرورة مراجعة الاتفاقيات مع الكيان الإسرائيلي دورياً بما يعيد مصر إلى مكانتها الإقليمية، ويعيد مبدأ دعم القضية الفلسطينية، تمهيداً لإبعاد هذه الاتفاقيات تدريجياً دون دفع أثمان باهظة بإلغائها فوراً. وستكون قضية دعم المقاومة ذات المرجعية الإسلامية سياسياً أكثر حضوراً في السياسة المصرية من خلال تعزيز العلاقة مع حركة حماس، ومن خلال مزيد من التدخل في الشأن الفلسطيني لتوحيد الفلسطينيين وتجميع رؤاهم باعتبار مصر لم تعد خصماً أو طرفاً مع طرف دون آخر، بهدف إضافة المقاومة الفاعلة كعنصر فاعل في الضغط على الكيان الإسرائيلي لتقديم تنازلات؛ وسيحرص الإسلاميون في السلطة على تحقيق التوازن في تعاملهم مع التوجهات السياسية الفلسطينية، ولكن أطرافاً فلسطينية مؤيدة للتسوية السياسية لن تكون سعيدة برؤية ارتفاع سقف التعامل مع الإسلاميين الفلسطينيين وبرنامجهم السياسي، التي ستكون بغرض تحقيق التوازن بالنسبة للمصريين وبغرض تمييز التواصل بالنسبة لهذه القوى التسوية.

كما أن صراعاً استراتيجياً آخر، هو من صميم الأمن القومي، سيدفع السلطة الإسلامية الجديدة في مصر إلى التلويح بعصا دعم المقاومة في مواجهة الكيان الإسرائيلي، هذا الصراع يتأسس على ملف مياه النيل الذي زادت حدة خطورته بوصول حليف الكيان الإسرائيلي إلى دولة جديدة "جنوب السودان"، وزيادة التدخل العسكري والأمني الإسرائيلي في السودان ودول القرن الإفريقي.

وحتى تتضح هذه السياسات بعيداً عن الرؤى العامة غير المتبلورة، والطبيعة الإنشائية غير المفصلة، فإننا أمام مساحة زمنية فاصلة ليست قصيرة.

في تونس التي استضافت الثورة الفلسطينية بعد حصار بيروت الشهير، وكانت شاهدة على روح المقاومة الثورية قبل أن تتجه بعض فصائل العمل الثوري آنذاك لمسيرة التسوية، والتي شهدت أيضاً عملية ممنهجة ضخمة لإقصاء التيار الإسلامي من الحياة العامة، يلخص الشيخ راشد الغنوشي، زعيم حركة النهضة التونسية، خلال افتتاحه المؤتمر التأسيسي الأول للمركز

المغربي للتنمية المقدسية في تونس مطلع تشرين الثاني/ نوفمبر 2012، موقف الإسلاميين في تونس من المقاومة في فلسطين بوضوح مطلق دون استخدام لكلمات ملتبسة على الرغم من كون حزبه في سدة السلطة اليوم: "الأمة تقترب يوماً بعد يوم نحو تحرير القدس وفلسطين، وهي تتجه نحو توحيد صفها وتنمية مواردها وتحرير أراضيها، والمعركة مع "الكيان الصهيوني" في سبيل الدفاع عن القضية الفلسطينية هي معركة على كلّ الواجهات، فهي معركة قلب وفكر وثقافة". وتتغل الحركة الإسلامية التونسية بنشاط لإعادة تثبيت ثقافة المقاومة في نفوس التونسيين من خلال مناشط سياسية وفعاليات شعبية، لم تغب عنها المقاومة الإسلامية الفلسطينية الممثلة في حماس مع تجاهل للتيارات التسوية في معظم هذه الفعاليات.

مستقبل ثقافة المقاومة بعد صعود الإسلاميين:

تمثل ثقافة المقاومة ثابتاً عاماً لدى الإسلاميين غير المنخرطين في السلطة، إلا أن صورها تبدأ بالتعقيد لدى مشاركة الإسلاميين في السلطة السياسية، بسبب خروج منظور التفاعل الميداني المباشر مع الجمهور من حساباتهم المباشرة، إلى متاهات معقدة من العلاقات المحلية والإقليمية والدولية، وخروج مفهوم المقاومة من حلبة الصراع المباشر مع أنظمة الحكم التي تمرد عليها الشعب.

التحدي الأكبر لدى الفكر الإسلامي في السلطة أن ثقافة المقاومة تنحصر في المشاع الإسلامي الجمعي بأنها ثقافة المقاومة المسلحة على حساب المقاومة المدنية أو الشعبية. وأنت الثورات العربية لتعزز بسلوكها هذه الثقافة الجديدة وتبرر لها الحضور، مما سيفرز أسئلة خطيرة أمام الإسلاميين في السلطة حال اختيار هذا الخيار في مواجهة المحتل العسكري بحجة فاعلية الهدف والوسيلة، وأنها الأقدر على إعادة الجمهور إلى ساحة المقاومة والنضال بتكلفة أقل، وأنها تحرم العدو من توظيف تأثيرات المقاومة المسلحة الإنسانية السالبة أحياناً.

وبصعود الإسلاميين للسلطة أصبحت ثقافة المقاومة بمفهومها السياسي واحدة من مفردات الاهتمام بعد أن كانت من مفردات الأولويات، بسبب تعدد جبهات المقاومة الثقافية، وكثرة القضايا الإشكالية الشائكة في المجتمع الذي عانى طويلاً من ثقافة سلطة الاستبداد واستحكاماتها، وحاجة السلطة عموماً إلى التهدئة لضمان تمرير برنامجها الاجتماعي والفكري.

خاتمة:

في ظلّ هذا الواقع فإننا نرى أن الاهتمام بالمقاومة سيتراجع عملياً في المدى المنظور القريب والمتوسط، فيما سيعود تدريجياً للظهور عبر برامج عمل في منتصف المدى المتوسط، مع حدوث الاستقرار النسبي للدول التي شهدت انتفاضات أو تغييرات جذرية أعادت الإسلاميين إلى

إطار المجتمع. على أن هذا الأمر قد يشهد بدايات أكر بسبب عامل خارجي، وهو أن الجمهور اليميني المتشدد في الكيان الصهيوني وممارسات القوة التدميرية للعدو الصهيوني ستدفع باتجاه نمو خطاب المقاومة من جديد في فكر الحركة الإسلامية الحاكمة، وسيدفعها لاستخدام تراثها في مواجهة التطرف الصهيوني القادم بقوة من هناك. وهذا يتطلب التحضير لبرنامج عمل واعٍ، يترافق معه تثقيف جماهيري متواصل وابتداع أساليب عمل جديدة تناسب متطلبات التغييرات الاجتماعية والتطور التقني.